فاعلية الاستراتجيات التخاطبية في تداولية المعنى الشعري_شعر أبي إسحاق الألبيري الأندلسي تطبيقاً _

ا.م.د صفاء عبد الله برهان
كلية العلوم الإسلامية بجامعة بغداد

ـ مقدمة:

لا يجد الباحث في الآداب الإنسانية، مندوحة من الركون إلى المناهج النقدية المعاصرة؛ لمتابعة سيرورة الخطاب الشعري، متكئا على ما تمده تلك المناهج من استراتيجياتها وآلياتها الفاعلة؛ لاستنطاق النصوص الشعرية، ولاسيما الغابرة منها، وما ينبلج عنها من خطاب شعري. ومن بين تلك المناهج المهمة (المنهج التداولي)، الذي يمنح الخطاب الشعري، مساحة واضحة من التواصل، مستثمرا قيمة السياق الكلامي، الذي يحدد بدوره المعنى، ويؤمن تداول الخطاب، ومن ثم ضمان تواصله وتحقيق الفائدة منه؛ ليلقى أثره في المتلقي، وليمثل بذلك صورة متكاملة للشروع بالتواصل المطلوب. وتزداد الحاجة للمنهج التداولي عند دراسة النصوص الشعرية قديمة؛ لاستنفاد الإجراءات النقدية التقليدية تحليل مضامينها و خطاباتها.

وعلى وفق تلك المنهجية التواصلية الكفوءة، آثر الباحث الخوض في إجراءات المنهج التداولي التواصلية، وتطبيقها في أثر شعري مهم، مثل نقطة مضيئة في تاريخ الآداب الإنسانية. ونعني به الشعر الأندلسي، الذي اكتسب إعجاب المتلقين له، ومثل حلقة وصل بين ثقافتين عالميتين، هما الحضارة الإسلامية بما تحمله من ثقل إنساني واضح، و ثقافة البلاد الأوروبية التي نهمت من (الفردوس المفقود) الشيء الكثير. ومما يزيد من قيمة الأدب الأندلسي، أنه أدب توقفت قرائحه، عندما غسقت حضارة الأندلسيين، بعيد سقوط غرناطة في سنة (897 هـ).

وبناءً على ذلك وجد الباحث في التداولية التواصلية وخطواتها الإجرائية، معينا لتحليل الخطاب الشعري الأندلسي؛ بغية مقاربة مقصديته التواصلية. وقد وقع الاختيار على شعر الفقيه أبي

إسحاق الألبيري (ت460 هـ)، أحد أبرز الشخصيات الأندلسية التي أمدّت أبناء مجتمعه بمعارفه، عبر خطاباتها المتنوعة. وهو الشأن الذي حفّز الباحث للخوض في تواصلية خطاب الألبيري، وقد شجعته على هذا العزم، ندرة تناول الخطاب الشعري الأندلسي تداوليا، ولاسيما الشاعر المذكور الذي لم يفرد بدراسة وافية. ما دفع الباحث إلى السير في متابعة خطابه، معتمدا ما شرعه الأستاذ عبد الهادي الشهري في تقسيمه لاستراتيجيات الخطاب على وفق المنهج التداولي. ما يسمح بمتابعة شعر الألبيري في ضوء مرجعياته الداخلية المتمثلة بـ(النص)، والخارجية المتمثلة بفاعلية الرسالة (الخطاب)؛ ليمكن من فهم وظيفته الحقيقية في دائرة واسعة، تعين على ضمان تواصلية. فكان على البحث الوقوف على مفهوم التداولية، ومن ثم استعرض استراتيجياته التخطابية، وفاعليتها في تواصلية خطاب الألبيري، وأخيرا الختام بنتائج البحث التي توصل إليها الباحث.

والله تعالى ولي التوفيق

مدخل : مفهوم التداولية

التداولية مفهوم ظهرت بداياته الأولى على يد الأمريكيين وليم جيمس (1910) باسم الذرائعية، وشارلس بيرس (1914) بتداوليته السيميائية القائمة على نظام العلامات؛ ليبشر زميلهم شارل موريس بالمقاربة التداولية التي تعنى بالوظيفة السياقية. بعد ذلك بمدة قدم اوستن فيلسوف جامعة اكسفورد، في محاضرات ألقاها عام (1955) بجامعة هارفرد، تداوليته التي تعني بالنسقية الإنجازية. وما يهمنا هنا أن التداولية عنيت بتناول لغة الخطاب في أقصى إمكانياته، بما يتجاوز حدود الدلالة والتأويل، الذي يقوم على منهجيات كلاسية تاريخية أو سياقية. بمعنى أن نتائج التداولية تسير في بيان ترددات الخطاب، التي تتحكم بها طبيعة الاستعمال الاجتماعي لحظة الشروع بالخطاب، والتي تتوافق مع مرجعيتها المتنوعة كالعلمية والتاريخية والنفسية والجمالية. ما يؤكد مقصد التداولية الباحث عن مساحة أرحب للخطاب؛ لكي تعيش فيها لغة الأديب ميدانا أوسع؛ ومن هنا كانت التداولية (دراسة كيف يكون للمقولات معان في المقامات الخطابية).[1]

وهذا الشأن يمنح المقاربة التداولية مفهوما خاصا، يبتعد عن سحب النقد الأدبي إلى مساحة ضيقة، عندما تحصره في ما هو جمالي وبلاغي. ومن ثم يستكمل المنهج التداولي رسالة الخطاب الأدبي، بما يعني أن ثمرات أخرى أكثر أهمية في النص مازالت بحاجة إلى متابعتها. ولاسيما فيما

يتعلق بطاقة استعمالها في مناخاتها الاجتماعية، التي تتطلب أبعادا تواصلية بين المرسل والمتلقي. وهذه التواصلية (لا تركز اهتماماتها على أدبية النص في حد ذاتها؛ بغية تعميق الفهم في الآليات التي تتحكم في بناء النص الأدبي).[2]

ومن ثم يتحول الأدب بهذا المفهوم إلى ظاهرة اجتماعية، تحمّل النصوص الأدبية رسالة فكرية ضمن علاماته الذاتية، التي تتشكل في أنساق أدبية تعتمد التأثير النفسي في المتلقي، وهو ما يمنح النصوص الأدبية قيمتها، التي تنجز أنموذج الأديب على وفق مرجعية النص ومقام الألفاظ والسياق المنتج. وهذا الاشتغال الواسع هو ما تقصده التداولية وتسعى إليه، حيث تواصلية الأدب التي تساير قيم العمل لتأخذه إلى محيطه الخارجي، بحسب الإشارات التواصلية المهمة التي تنبعث من المرسل، ويتلقفها المرسل إليه. وتأسيسا على هذه الوظيفة لا يمكن للنقد أن يخلص إلى عمله، دون المرور بالفائدة والرسالة والمقصدية التي يحملها، وإلا سينكص به إلى تلك المناهج النقدية السابقة، التي حاكمت النص الأدبي في ضوء مرجعياته المحددة. وحصرت العملية الإبداعية والوظيفة الحقيقية في تلك الحدود فحسب. ما يضعف وظائفه الحيوية، بخلاف التداولية التي تحشد للعمل الشعري علاقاته المتنوعة، بما يمنح النصوص شعريتها وفق مفهومها الألسني، وهو ما قدمه رومان ياكبسون عندما قرر أن مفهوم الشعرية، هو (الدراسة اللسانية للوظيفة الشعرية في سياق الرسائل اللفظية عموما، وفي الشعر على وجه الخصوص).[3]

ومن هنا تفهم ماهية التداولية بما تسعى إليه من تواصلية المعنى، مع أهمية التركيز على العلاقة بين العلامات التي تنبعث من الخطاب؛ لتتجاوز الاهتمام بالمرجعيات والتراكيب والتأويلات؛ بوصف الخطاب أحد أهم عناصر المقصدية الاجتماعية، التي تمسك بدلالات النص المؤدية إلى وظيفتها الأعمق، فضلا عن أهميته في الدخول إلى العمل الإبداعي، كذلك الإحاطة به رؤية وموضوعا و بناءً. ومن هنا تأتي أهمية العلامات في النص الأدبي، بوصفها حالة نصية إحالية ومرجعية، ترتبط بالوظيفة التداولية التي تتعامل مع النص الأدبي، وربطه مع سياقه لأن (للسياق دور بالغ في تحديد المعنى أو ترجيحه على حساب معنى آخر).[4]

وهذا الشأن يعني أن عملية التواصل والتأثير، هو ما تسعى إليه التداولية التواصلية؛ لتنقل ما ينتجه السياق من خطاب، مع مراعاة لحظة الشروع بالخطاب والمقام الذي يكون عليه المتلقي؛

ليضمن نجاح العملية التواصلية (انطلاقا من ظروف إنتاج الخطاب ذاته إلى المقاصد المنتظرة من ورائه، إلى ما يمكن أن تخلفه من آثار في المتلقي، وكل ما يتحكم فيه السياق من مظاهر التواصل).[5]

وهكذا تبرز التداوليةُ عبر وظيفتها الموجهة إلى تواصليته، عن طريق استراتيجياتها المختلفة[6]، التي تهتم بتواصلية الخطاب والأسس التي تجعله فاعلا، أي يحمل معنى مقصودا وفائدة حاصلة، تتوج حركة المنجز الأدبي في دائرتها الواسعة من المرسل إلى المتلقي. وهو ما سنبحثه في استراتيجيات التخطاب الرئيسة، بحسب حضورها في شعر الألبيري. ونعني بها الإقناعية، والتوجيهية، والتضامنية، والتلميحية.

ـ أولا: الاستراتيجية الإقناعية

من الاستراتيجيات التي يعتمدها الأديب في خطابه الشعري، بما تمتلكه من دعوة صريحة لممارسة سلطته الذاتية على الآخر؛ لينظر إلى شؤونه بمنظار أكثر واقعية. ما يعني تناول النصوص والخطابات التي تحيل على النصوص المنتقاة والمؤثرة في المتلقي؛ عبر لغة تواصلية تخبر عن موقف معين، أو محاولة جذب الانتباه إليه والاقتناع به بحجج وافية؛ لذا قال فيليب بروطون: (يعد الإقناع إحدى جهات القول الأساس للتواصل، الذي يكون القصد منه إما التعبير عن إحساس، أو عن حالة، أو عن نظرة فريدة إلى العالم، أو إلى الذات).[7]

ومن هنا كان على الشاعر أن يستعين بمرجعية معرفية؛ لغرس المفاهيم المتنوعة بنحو واضح، ومن ثم تبيّن الأثر الفعلي في المتلقي المقصود أو الضمني. وهو ما تعنى به أنساق الثقافة المرصوفة في النص الشعري ذي الطبيعة الحجاجية، ما يؤكد معه أن (المتكلم المحاجج ليس هدفه الإفهام فحسب، بل يمتد هدفه؛ ليشمل التأثير في المتلقي المحجوج والمحاجج، قصد توجيه موقفه وجهة محددة).[8]

وهو الشأن الذي يتطلب وجود سلطة للمرسل، عندما يوجه خطابا يستميل المتلقي، ويأخذ به إلى منطقة الاشتغال القولي والفعلي، حيث سلطة الذات الشاعرة على الآخر ضمن تبعية مهيمنة.

وقديما ذكر حازم القرطاجني نموذجين أساسيين للتأثير الأول الإقناع وهي خاصية ملازمة للحجاج، والآخر التخييل بوصفه قوام الشعر. ورأى أن غايتهما واحدة، وهي إعمال الحيلة عند إلقاء الكلام في النفوس لغرض التأثير فيها.[9]

وهذه الاستراتيجية تسعى إلى إحداث تأثيرها في ذهن المتلقي، ومن ثم ضمان السير فيما يشرعه المرسل من خطاب، ويدل عليه من معان ومقاصد، تتدرج في إرسالها من التنظير إلى الخطاب الشعري إلى المخاطب؛ بوصفه هدفها المقصود وهنا (تستعمل استراتيجية الإقناع من أجل تحقيق أهداف المرسل النفعية، بالرغم من تفاوتها تبعا لتفاوت مجالات الخطاب أو حقوله).[10]

وهكذا برزت الاستراتيجية الإقناعية عند الألبيري، الذي يمتلك آليات متعددة لتلك الهيمنة؛تحفزها الأفعال التداولية المناسبة، ومنها الاستعمال التداولي للأفعال[11]. التي تعتمد في تثبيت الأقوال والحكم والحجج التي تلازم شخصية الألبيري؛ بوصفه الفقيه ذي النفوذ الروحي، الذي يحاول أن يطلق صوته في أبناء مجتمعه مرشدا ومعلما، في كثير من المواقف التي تتعامل مع الذات الأخرى. مستثمرا حقائق الأشياء، والتي تحملها وسائل تخاطبية متاحة، وهذا الشأن ينصب اهتمامه على جزئية فرعية أو عمومية في مجتمعها الأندلسي. والملاحظ أنه كان يكثر من أسلوب النفي في حججه؛ ليمهد به ما يريد أن يثبته للمتلقي. ومن ذلك أبياته الحجاجية التي أنشدها في أهل ألبيرة، الذين اشتكوا قاضيهم ابن أبي زمنين (ت 399 هـ)، قال:

رفعتـم على قاضيكم فخفضتـم وحـــاولتـم خزيـا لـه فخـزيتـم
و طـال لعمـري ما سعدتم بسعده ولو انـــه يشقـــى إذن لشقيـتـــم
و مـــا كان إلا سركـم لو غفلـتـم ولكنكـم عـن رشـدكم قـد عميتـم
فها هو ذا يقضي على الرغم منكـم فموتوا بغيـظ واصنعوا كيف شئتم[12]

هنا تظهر مهارة الألبيري في استعمال آليات الخطاب الحجاجي، التي تمدّه بحقيقة القاضي وأثره في المجتمع، بعد المحاولة التي سعى بها قومه أن يترفعوا عنه بحسب ذهنيتهم، كما يبدو في حركة التضاد (رفعتم/خفضتم) التي أرسلت حججا تمثل رؤية الفقيه والإنسان معا؛ لذا عمد إلى أداتي الربط العاطفية (الفاء، الواو) بوصفهما من الروابط الحجاجية، التي تربط (بين قولين أو حجتين على

الأصح، أو أكثر, وتستند لكل قول دورًا محددا داخل الاستراتجية الحجاجية العامة).[13] وعملت على شدها إلى بعضها في ترتيب منطقي يشكل تعاقبها في القوة؛ عندما أكّدت كينونة ذلك القاضي، وما يصدر عنه من أحكام مصيرية تسير الحياة، وتنبني على الدلالة المباشرة التي أساسها ثنائية (السعادة/الشقاء)، في خطاب يشمل من جهل حقائق الأمور وتبعاتها. ومن هنا وقف عند ما يهمهم وهو القاضي سر وجود المجتمع واستقراره، الذي استدعى أسلوب القصر المعضّد لتلك الحجج (وما كان إلا سركم)، مستفيدا من إمكانياته الحجاجية التي يرصفها لإقناع أولئك القوم، ثم تبعها بـ(لكن) حرف الاستدراك الذي كان جسرا؛ للربط بين الحالين المتناقضين من جهة، ومنح الحجة قوتها اللازمة من جهة أخرى، فتدخل في حجاج يأخذ منحى الإلزام لوجود القاضي المطلوب.الذي يسير بموازاة توظيف تداولي لمفرادت مؤثرة تبرز في (الرفعة، والشقاء، والسعادة، والغيظ)؛ إذ لا تتجاوز دلالتها المعهودة في التداول الاجتماعي، وما فيها من قيمة تداولية لا يتجاوزها الوعي. ويختمها بالفعل المضارع (يقضي) الذي يدل على تجدد أهمية القاضي وديمومتها، إزاء التبكيت الماثل في قوله: (موتوا بغيظكم، واصنعوا كيف شئتم) الذي يعتمد قوته في ترسيخ القناعات.

لقد كشفت النصوص الشعرية الحجاجية عند الألبيري، أن الشاعر انطلق من مسلمات اجتماعية، يرفقها بنظرة انطباعية تتشكل من قناعاته الدينية التي تتحكم في ذاته، ما يعني أن الصبغة الذاتية كانت حاضرة وهو يحاول إقناع المتلقي بقوله:

ما عيدك الفخم إلا يوم يغفر لك لا أن تجر به مستكبرا حللك
كم من جديد ثياب دينه خلق تكاد تلعنه الأقطار حيث سلك
و كم مرقع أطمار جديد تقى بكت عليه السما والأرض حين هلك
ما ضر ذلك طمراه ولا نفعت هذا حلاه ولا أن الرقاب ملك[14]

فهو قد ابتدأ بأسلوب القصر (ما .. إلا) الذي دعم حقيقة الفرح بالعيد، عندما حصره في غفران الذنوب؛ ليؤكده عيد الإنسان الحقيقي، لا اليوم المخصوص (عيدي الفطر والأضحى)؛ لذا يستخدم المخزون الإلهي الذي ينظر إلى قلب الإنسان، معتمدا مرجعية دينية جاءت في الحديث الشريف: (إن الله لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم)[15]. وهو ما يرسخ الفكرة في ذهن المتلقي من خلال التداول الاجتماعي لصورة المؤمن الحقيقي، الذي لا تحجب

(الأطمار المرقعة) حقيقته، في محاججة حسية لحال المؤمن الفقير في الدنيا، ولكن قلبه مليء بمحبة الله تعالى، ما يدعو إلى بكاء السماء والأرض عليه عند موته. ما يعني إن أحد الطرفين لم يصل إلى التسليم بقناعة معينة، وهو ما تردد في محاولته الإقناعية في صورة من يتوارى خلف الثياب والأموال، ولا يحرز شيئا عند الله تعالى إن كان مملوء بالذنوب؛ ليحقق بتلك الآليات وظيفة الإقناع (قصد التواصل، والتفسير، وإضفاء المشروعية على وجهة نظر ما واقتسامها).[16]. ما يبرزه في محاولة لفرض قيم النسق الديني بغرسه وتعزيزه في وجدان المتلقي، عن طريق تلك الحجج التي سيقت، بتداول طاقة (كم) الإخبارية ذات الطبيعة التأثيرية، التي تأصلت بالأفعال التأثيرية (يغفر لك، وتجر به، وبكت عليه، وما ضر ذلك، ولا نفعت) التي أوصدت أية محاولة للخروج على خط الألبيري الحجاجي مع ذوي النظرة الشكلية الضيقة، ما يعطي لفكرته الدينية فائدتها التي تحتكم إلى جوهر الإنسان، الذي يصطبغ فيه الفكر الجمعي بعيدا عن اللون الشخصي غير الموضوعي.

هذه الرؤية دعت الألبيري إلى أن يأخذ بأدواتها وهو يوجه حجاجه، وما يدور حوله من أسئلة مشروعه الحجاجي، المتمثل بربط الدين بالأدب، الداعي إلى الزهد، حتى عد أغلب (شعره زهدي في جوهره، وهي حالة مثيرة في القرن الذي عاش فيه، لأن هذا الطراز من الشعر لم يكن مألوفا على نحو واسع)[17] ما يحدث انسجاما في الربط بين الحجج المرصوفة، ومن ذلك قوله:

ما يثـقـل الـميـزان إلا بامـرئ قـد خـف كاهلـه من الأثقـال
فخـذ الكفاف ولا تكن ذا فضلة فالفضـل تسـأل عنـه أي سـؤال
و دع المطـارف و المطي لأهلها و اقنـع بأطمـار و لبـس نعـال
فهـم و أنت وفقـرنا و غنـاهم لا يستقـر ولا يـدوم بحـال
و طف البلاد لكـي ترى آثار من قد كـان يملكهـا من الأقيـال
عصفت بهـم ريح الردى فذرتهم ذروا الريـاح الهـوج حقف رمال[18]

حاول الأبيري النفوذ إلى فكرة النجاة في يوم الحساب، عبر لغة شعرية شرعت بأسلوب الحصر الأداة (ما...إلا) للتقابل في (رجحان الميزان/ قلة الذنوب)، وهي مما يتقبله المخاطب بنحو مقنع؛ لذا حضرت استراتيجية الإقناع بفعل الأمر (خذ الكفاف) في إشارة إلى تأكيد خفيف المؤونة،

وما سواها ثقل على الإنسان، ما يعني أنه سيسير على هذا النهج في بث قناعاته، التي يرسلها في جمهور ضمني فيما بعد. وهو ما يعني أنه بدأ التمييز المنهجي في أساليب الحجاج بعرض المشاهد الحسية من اللباس والمأكل، بما يظهره في لغة حجاجية تعتمد تجارب الآخرين الغابرين، التي حضرت ماثلة في تأكيده بشملوها الجميع (هم وأنت وفقرنا وغناهم)، ما يعطي العلاقة السببية قوتها التي تكونت من الروابط العاطفية الحجاجية، ويتبعها الواو في التقارب من الحال ما يدفع إلى الإقناع، ولاسيما بـ(لا العاطفة) التي ربطت حججه بشكل مهيب؛ لتخدم غرضه الوعظي، بما يساير الذائقة الإنسانية التي لا تملك أن تعارض أحكامها، ولاسيما في دعوته (طف البلاد) التي تؤكد مصير الإنسان في هذه الدنيا، بنحو يسير إلى الاستعارة الحجاجية في قوله (عصفت بهم ريح الردى)، التي ترسم صورة إيحائية لخطاب الموت الحجاجي، وهو في ذلك يرسل حججه بنحو منطقي وسلس، ومترابط بحروف عطف ربطت حججه بنحو منتظم؛ ليسهل من إقناع المتلقي بعاقبته في هذه الدنيا.

وهكذا نجد أن خطاب الألبيري الإقناعي، قد توجه بنحو مبين إلى التحذير من الكون إلى الحياة الدنيا، التي لم يركن إليها الألبيري، بل كان كما وصفه الضبي (كثير الشعر في ذم الدنيا)[19]، وهو الشأن الذي يؤكد وجود التأثير إلى جنب الاهتمام بموقف وسياق الذات الفاعلة، والموقف والسياق من أمور حتمية تحد وجود المرء. ومن هنا حاول الألبيري أن يخاطب الذات المتلقية، بحسب حمولتها التداولية كقوله:

كـل امــرئ فيمــا يديـن يــدان سبحــان مـن لـم يخـل منـه مكان
يا عامـر الدنيـا ليسكنهـا و مـا هــي بالـتــي يبـقـى بهـا سكــان
تفنـى و تبقى الأرض بعدك مثلمـا يبقــى الــمناخ وتـرحــل الركبــان
أ أسرُ فـي الـدنيا بكـل زيــادة؟ و زيادتــي فيهــا هــي النقصان ! [20]

وهو يسير في ما تفرضه سنن الحياة الطبيعية، من حيث أن كل شيء صائر إلى زوال، وهو بمخاطبته لمن يعمر دنياه، يحاول أن يبين له أن كل ما يسعى له فإنما هو مبني على الإغواء الاجتماعي، كما يتضح ذلك جليا في الثنائية المتلازمة (البقاء/الفناء). وعلى أساسها تتبني رؤية الشاعر وهو يحاول أن يخاطب مقصوده، الذي يعضده بلام التعليل المسندة للفعل المضارع، وما يعطي ذلك من قوة حجاجية للأبيات؛ عبر تسويغ غاية وجود الإنسان، ودعم الحجج المقامة في إفادة

ما حل بتلك الدنيا. وهو هنا يحيل الظواهر إلى أسبابها كون النسق الزمني هو المهيمن، وبما أنه كذلك فقد عمد إلى كل الوسائل الممكنة؛ ليمنع قيام خطاب آخر قد يدور في ذهن المتلقي، ويضيّق مجاله في ما يشعر به ويحسه الشاعر نفسه؛ ليتحول من خطاب التفاني في الآخر إلى بيان المساواة في العلاقة الإنسانية، التي تمكن من إظهاره بمظهر الخطاب الفعال في الذات، حيث السؤال الطبيعي (أأسر في الدنيا بكل زيادة/ زيادتي فيها هي النقصان) التي يعدل بها عن المتخيل، من أجل إثبات حقيقة الموت التي هي واقعة لا محالة؛ بعدما ظهر تقلب الأحوال الذي هو مدعاة الإقناع الأكبر؛ لتحقيق الحجاجية في رؤية الزيادة والنقصان في العمر، عن طريق انسجامه المعنوي وتماسكه النصي، والربط بين قضاياه المتنوعة عن طريق الروابط الحجاجية. بما ساير طاقة الأفعال المضارعة المتضادة (يدين/ يدان، وليسكنها/ما تبقى، وتفنى وتبقى، ويبقى/ترجل)، التي جددت حجج رحيل الأحياء وخراب الديار

ـ ثانيا: الإستراتيجية التوجيهية

استراتيجية التوجيه من الاستراتيجيات الواضحة للخطاب التداولي، بما تعمل عليه من مقاربة النص الشعري إلى ذهنية المتلقي، وإضاءة أنساقه التي توجّه المتلقي الوجهة الصحيحة في سلوكه وفكره معا. وهو ما يمكّنه من عرض الفكرة التي يتبناها في وجدانه، عبر توظيف اجتماعي متقن للغة شعرية متنوعة الإحالات. ومن هنا يتحتّم على الأديب أن يبين في رسالته موارد التوجيه للمرسل إليه، وهو ما يتطلب شروحا وتعليقات ينبغي بثها في خطاب النص؛ لتؤدي بدورها وظائف محددة توحي بالحقيقة الموضوعية الموثقة، على وفق سياقات تتجاوز التهذيب في غالبها؛ لتناسب المقام الذي يكون عليه المرسل إليه، وهذا يعود إلى (أسباب كثيرة منها ما يتعلق بأولوية التوجيه على التأدب في خطابات النصح والتحذير).[21]

وهي الحال التي يتبين معها أن السياقات النصية، يجب أن تتلاءم وما عرفته الخطابات التداولية، ما يحسم الشأن في قدرتها على استيعاب النص في ذهن المتلقي. وهو ما يمكن أن يمضي إلى تجليات الخطاب التوجيهي، الذي يتفاعل مع متنه النصي ومتلقيه الشخصي، تجسيدا للمعرفة الخلفية التي يتكئ عليها الأديب؛ لإشراك المتلقي في فهم جوهر التوجيه ومرجعيته. كما يهدف إلى خلخلة الذوق السائد لدى المتلقي، وتنبيهه إلى أنه استراتيجية تأخذ بنوع من الإلزام إلى وجهة جديدة،

بما يتطلب منه الإسهام في إعادة إنتاج أساليبه وطرائق تفكيره؛ ليضمن استجابة المتلقي، وهو ما أقره (غرايس)؛ بما عرضه من مبدأ التعاون الذي (يقتضي أن المتكلمين متعاونون في تسهيل عملية التخاطب).[22]

وهكذا فالخطاب التوجيهي يمثل معلما مهما في الخطاب التداولي، ما يمنحه رؤية تفرض نفسها على المتلقي، بما يعضد الخطاب الأساسي ويثريه فكريا ومعنويا. ومن هنا نألف حضور الأفعال التأثيرية كالأمريات أو التوجيهات، التي تقصد (توجيه المتكلم رسالة إلى المخاطب لفعل شيء ما، واتجاه المطابقة فيها من العالم إلى الكلمات، وشرط الإخلاص فيها يتمثل في الرغبة الصادقة في العمل).[23]

بحيث يجعل من المقاصد الخطابية تؤطره وتعمل على توجيهه. وهنا يحاول الأديب تخفيف درجة الغموض التي يعيشها المتلقي؛ لتسيير وجهته إلى العمل بالشكل الذي يغيب عن فكره، ما يسمح بتسخير الأديب أدواته اللغوية التي يعرفها المتلقي، من دون توظيف علامات تتطلب إيضاحات وشروحا، مع الأخذ بالحسبان الاهتمام بفرض تلك الرؤية إلى حد معلوم؛ إذ إن (الخطاب ذا الإستراتيجية التوجيهية يعد ضغطا وتدخلا، ولو بدرجات متفاوتة، على المرسل إليه، وتوجيهه لفعل مستقبلي معين).[24]

ومن هنا مثلت الاستراتيجية التوجيهية ضرورة اجتماعية لخطاب الألبيري، وهو يستعين بمجموعة تداولية، تعنى بقضاياها المتنوعة، وأثرها في الحياة بنحو عام، ومن ثم الكشف عن كثير من الملابسات التي تدور في ذهن المتلقي، والعمل على حلحلة تعقيداتها المفترضة، التي تهون من الهامشي والعادي والمبتذل، مع مراعاة تلك الآثار في المرسل إليه أو المعني بالخطاب، بما يضمن استعمال التوجيه يعمل على إحداث آثار اجتماعية تحافظ على العلاقات الإنسانية. وتأسيسا على ذلك استعمل الألبيري التوجيه هذه المرة مع رجل يدعى أبا بكر تجاوز عليه، فبين له منزلة العلم والعلماء، قائلا:

أبا بكـــر دعوتــك لو أجبتـا إلـــى ما فيه حظــك إن عقــلتـا

إلى علـــم تكـــون به إمـــامـــا مطاعـــا إن نـهـيت و إن أمـــرتـــا
و تجلـــو ما بعينـــك من عشاهـا وتهديـــك الســـبيـــل إذا ظلـــلتـــا
و تحمـــل منـــه في ناديك تاجـا وتكســـوك الجمـــال إذا اغتـــربتا
ينـالك نفعـــه ما دمـــت حيـــا ويبقـــى ذخـــره لـــك إن ذهبـتـا[25]

هنا نستشعر أن دائرة المحيط النفسي التي تحاصر الألبيري، كانت ذات تأثير واضح في إنتاج ظروف القصيدة، وجعلها علامة نصية مهمة تتداول في بيان تركيز الألبيري لأهمية العلم، ما يشكل معه فعلا تأثيريا على المتلقي، يضمن استجابته تبعا لنهج تداولي. شرعه في صيغة النداء المضمر الأداة، وما يدل به على طي المسافة مع المتلقي. وهو ما يعزز الوظيفة التداولية التي أطلقها بسيل من التوجيهات، والتي تظهر في طبيعة أسلوب الشرط المرغب (لو أجبتا...فيه حظك... إن عقلتا)، الذي هو من المؤشرات التداولية، التي تندب المخاطب بما يكسب استجابته؛ لأنها تعود بالنفع إلى المرسل إليه وهو هنا المدعو (أبا بكر)، عندما عرض الدعوة التي فيها الخير الكبير للمدعو، ما يعني أن ثمة خيار له في أن يسير في سبيلها أو يعرض عنها. وبعد ذلك نلحظ تدفق المعاني المحرضة على القيام بطلب العلم. وهنا يأخذ التوجيه نوعا من الحث؛ لما يعود إلى السلّم الاجتماعي، وهو ما يمكن أن تؤكده تلك العناية التي يوليها الألبيري؛ لتبليغ قصده وتحقيق هدفه الخطابي في ذات المتلقي المقصود، الذي يفرض قيدا على المرسل إليه، في ما يؤمن به المرسل من أهمية العلم في حياة الناس، وهو ما استمد استمراريته بالأفعال المضارعة المؤثرة، التي توزعت وهو يخاطب المتلقي بأفعال تعود بالمنفعة عليه. ومن هنا كان مسوغ استعمال الخطاب التوجيهي بصيغة الأفعال التصريحية المضارعة (تكون إماما،وتجلو عشاها،وتهدي السبيل،وتحمل تاجا،وتكسو الجمال)، بما يشكل لازمة تثير ذهنية المتلقي، حشرها بعلامات لونية ضمنية متناظرة؛ إذ الإمام المنتشل للورى من الظلمة (السواد)، والظلمة التي تعشو عيون الجهل، ومثلها تهدي السبيل تنير طريقهم (البياض)، تحمل تاجا ما يمثل لون السيادة المشرق (الأصفر الناصع)، وتكسو جمالا يبهج الروح بمنظر ألوانها. ما يؤشر علامات التنوير والرفعة التي قصدها الألبيري.

ويبدو أن هذا المشكل ما زال يشكل عقبة في ذهنية أبي بكر، فكان على الشاعر أن يتواصل في ترديد الخطاب، الذي يحثّه على العمل وتؤثر فيه، ولكن إثباتها لا يمنع أن يخرج توجيه

الألبيري إلى دائرة أوسع؛ لما يحمله من أسس ثابتة لارتقاء الإنسان بالعلم؛ فتبدو استراتيجيتها التوجيهية ماثلة (في نظام التركيب اللغوي للنص، أي في بنية تركيب الجمل والمفردات)[26]. وقد آثر الألبيري استعمال التوجيه في خطاب مباشر، يراعي سمات شخصية أبي بكر الذاتية؛ إذ تعمل استراتيجيته عملها مستثمرة المعرفة المشتركة بين طرفي الخطاب وهما (العالم/الجاهل)، وهذا الشأن يجعل عروض الشاعر، ذات تأثير واضح في المتلقي، والمقصد التداولي هو التأثير في المتلقي لبيان ثمار طلب العلم، نقرأ له:

فلو قد ذقت من حلواه طعما لآثرت التعلم واجتهدتا
و لم يشغلك عنه هوى مطاع ولا دنيا بزخرفها فتنتا
و لا ألهاك عنه أنيق روض ولا خدر بربربه كلفتا
فواظبه وخذ بالجد فيه فإن أعطا كه الله أخذتا[27]

هنا يرصف الألبيري أدوات الخطاب التوجيهي، وهي أساليب الشرط (فلو ذقت .. لآثرت)، وهو أسلوب يقتضي وقوع الفعل نتيجة عمل آخر يسبقه، مع الاهتمام بالبعد المجازي الذي يضعّف عملية التأثر والتأثير بين المرسل والمتلقي، وبذا فاستعمال أسلوب الشرط بصيغة ترغيبية، وأسلوب النفي (لم يشغلك، ولا دنيا، ولا ألهاك، ولا خدر) التي تتعاقب فيما بينها؛ لتصور للمتلقي تلك المنزلة التي ينالها من طلب العلم. وهو ما يضمن مغزى الشاعر في استراتيجيته التوجيهية؛ حيث إلحاحه على تلقي أبي بكر العلمَ؛ ليأتي في هذا النص من أساليب متنوعة قريبة من مجامع الوجدان، التي تنهض فيما بعد ما يجعل هذا التوجيه ذا مكانة عالية في إضاءة المتن، وحصوله أقصى مقتضى التوجيه. وهو ما يوضح عدم توانيه في ترديد الخطاب، وتعقيب الخطاب والتمسك بحزم المعاني التي يجب تداولها، حيث الترغيب بهذا العمل وحلاوته الروحية، التي تشغل عن (هوى مطاع و زخرف الدنيا) ما شكل نصوصا متعاقبة، تأخذ وجودها الحقيقي من الوجود الأول في علاقة تكاملية لبيان فضيلة العلم. ومن هنا فلا مندوحة أن يتدخل الألبيري بقوة؛ ليرشد متلقيه بفعل قوة الأمر للمواظبة بما منحه الله تعالى له، ومعتمدا خطاب ذي مكنونات داخلية تحيط بالنص الأساس، وهي مناسبة السياق التفاعلي التوجيهي (الحث على طلب العلم) لاستعمال الاستراتيجية التوجيهية؛ للإمساك بتواصلية

الخطاب التي تتجسد في مجموعة المزايا التي عرضها البعد التداولي للمتلقي؛ نتيجة للشعور بالتفاوت في مستوى التفكير بين الألبيري وأبي بكر.

وهكذا نجد أن الاستراتيجية التوجيهية التي يعتمدها الألبيري، قد تنوعت بملفوظاتها سواء أكانت كلمة أم جملة، أم فقرة، أم نصا. ما يدرك معه أن الشاعر كان حريصا على ندب المتلقي ضمن خطاب تأثيري، يمثل مرجعية مرتبطة بالنص من جهة وبالمتلقي المعين من جهة أخرى. مع الأخذ بطبيعة التباين في منزلة الطرفين. ضمن محيط يبدي تلامسا مبينا ينجح الاستراتيجية التوجيهية التي اعتنقها، ما يحرز معه فعلا تأثيريا يعتمد سلطته الفقهية، التي تدين له الرقاب في مجتمع مسلم كالمجتمع الأندلسي. وقد عاونه على ذلك فعل الأمر بطبيعته الاستعلائية، الذي يوجه الخطاب نحو مقصده بنحو مرضٍ؛ بوصف الخطاب في حقيقته (النص منظورا إليه في سياقه خصوصا الاجتماعي).[28] وتبعا لذلك ندرك أن الخطاب التوجيهي يبني من طرف المرسل (الشاعر)، علاقات تكاملية تؤسس لرحلة من الشرح والتوضيح، ومن ثم الفهم الذي يذهب بما يقصي الأثر السلبي على المرسل إليه، وما يزيحه المرسل من مسافات غموض داخل النص؛ ليخرج في خطاب واضح المعالم، كما قال الألبيري:

إذا ما لـم يفـدك العلـم خيـرا فخيـر منـه أن لـو قـد جهلتـا
و إن ألقـاك فهمـك فـي مهـاوٍ فليتـك ثـم ليتـك مـا فهـمتـا
ستجنـي مـن ثمـار العجز جهلا وتصغـر في العيـون إذا كـبـرتا
و تفقـد إن جهـلت وأنت بـاق وتوجـد إن علمـت و قـد فقـدتا
و تذكـر قولـتي لـك بعد حين وتغبطـهـا إذا عـنهـا شغـلـتـا[29]

وهنا يحتاج الألبيري إلى تأكيد المعنى المتداول ولكن بصورة أخرى، فهو يعرض إلى العلم الذي لا يجلب نفعا _وهو حال أبي بكر_ ما يبين الهدف من التعبير عن الحال الظاهرة؛ إذ إن فعل الشرط الذي يتحرك في مرحلتين متتابعين، الأولى (إذا لم يفدك العلم خير ... فخير من أن لو قد جهلتا)، والأخرى (وإن ألقاك فهمه في مهاو.. فليتك ثم ليتك ما فهمتا)، ينجز حركة تأثيرية في مجتمع يحترم العلماء، ما يظهر أثرهما الفعلي الذي هو من خصائص الخطاب التداولي التوجيهي، الذي

يظهر التناقض في الصورتين، تنبعث من الإشارات المؤكدة لثمرة العلم المتنوعة (النافع/الضار). وبعدها يركز على أفعال مضارعة ذات طبيعة تأثيرية مستقبلية، تؤدي مجموعة من الوظائف التي يصر عليها المرسل؛ لأجل تنفيذ الفعل المؤثر في العمل، وهو ما يحذر الذات المقابلة في ما يرسله من أفعال مضارعة تدل على حركة متجددة، تبرز في (تجني، وتصغر، وتفقد، وتوجد، وتذكر، وتغبط). وهو ما يبز التراتبية في تلك الأفعال؛ بحسب ما يتضمنه قصد الألبيري، الذي يؤثر في المتلقي من حيث تصور الأبعاد المحاصرة له في وسطه، وما يجب أن يقف منها موقفا واضحا ليتجاوزها؛ لأن (الوصف التداولي يتطلب تكامل حلقاته وانسجامه، نظرا لطبيعة العلاقات التي تربط بينها).[30] وهو ما جعل الشاعر يتفنن في عرض التداعيات الخطيرة للعلم الضار، حيث المقابلة في البيت (وتفقد إن جهلت وأنت باق/ وتوجد إن علمت وقد فقدتا)، بما تنساق إلى الفعل التداولي الأكبر (فضيلة العلم)، ما يعني أن الألبيري لم يكن ناقلا للوصف فحسب، بل كان معنيا بالتطبيق العملي الذي يعتمد الإثبات والتقرير، وهو ما يؤكده (تذكر قولي)، و(تغبطها إذا شغلتا) بما يترسخ تأثيره في وجدان المتلقي.

ومن هنا فإن الذهاب إلى الملفوظ التوجيهي، كان يرتكز على ما يمكن أن ينتقل من ذهنية المرسل على المتلقي، الذي يخلو ذهنه من الفضائل التي يجلبها العلم، وكذلك المساوئ التي يمكن أن يقع فيها، ومن هنا يعود الألبيري قائلا:

لسوف تعض من ندم عليها وما تغني الندامة إن ندمتا
إذا أبصرت صحبك في سماء قد ارتفعوا عليك و قد سلفتا
فراجعها ودع عنك الهويني فما بالبطء تدرك ما طلبتا
و لا تحفل بمال أله عنه فليس المال إلا ما علمتا
و ليس لجاهل في الناس معنى ولو ملك العراق له تأتى[31]

وهنا يبدو سعي الألبيري إلى تصحيح الفهم لدى المتلقي، عبر مؤشرات تداولية تمثلت في تحذيرات تنسجم والإحساس بالتفريط بهذه الفضيلة، ما يوصل المتلقي إلى حالة من المراجعة الذاتية، التي تمكنه أن يقف على أهمية ما يبعثه النص من توجيه، عندما يستعمل النهي بلا والفعل المضارع

(لا تحفل)، ما يعطي ميزة التوجيه بالنهي عن الخيلاء، وما يمنحه من دوام السياق التفاعلي المشبوب بما سبقه بالتحذير من العض على أصبع الندم، والتعثر في المسيرة والتخلف عن الأصحاب، ما يعني أن تلك الألفاظ كانت تؤدي وظيفتها ضمن معرفة خلفية، ينطلق منها الألبيري بوصفه ذاق حلاوة العلم، فأردف كلامه بدلالات زاخرة بالعلامات، التي وظفها في لغة شعرية مثل (لسوف، فراجعها، إذا أبصرت) تداول هذا الرمز الجليل (العلم). ما يجعل من الأفعال التي يستعملها في صيغتها التأثيرية (تعض، وارتفعوا، وراجع، وأبصرت، وتدرك)، وكلها تدخل في حكم ندب صاحب المنفعة (المتلقي). وهو شرط في تحقيق تواصليتها، والشاعر بين ذلك له في خطاب توجيهي لا يقبل التأويل؛ لأن (الخطاب كل منطوق به موجه إلى الغير بغرض إفهامه مقصودا مخصوصا).[32] وهو ما يؤكد أن الشاعر ذهب إلى استعمال استراتيجية التوجيه، بما يتناسب طرديا مع منزلة المرسل الاجتماعية من جهة، ومدى العلاقة بالمرسل إليه من جهة أخرى؛ لذا يجب تحديد المقصد بين الطرفين المعنيين، من دون الإغراق في المجازات اللغوية والألغاز الاجتماعية، مرفوقة باستعمال أفعال صرحية كما هو واضح في أبيات الألبيري، التي تبين الدلالة عبر أفعال واضحة غير قابلة للتفسير والتأويل.

وعلى وفق ذلك النهج التداولي التواصلي، تعمل الاستراتيجية التوجيهية ضمن وظيفة تتضمن إشارات مهمة، إلى سياق حدث يثير المتلقي ويدفعه لممارسة ما يوجه إليه. شرط اتفاقها مع سلطة المرسل الاجتماعية، وكفاءة المرسل إليه التداولية في فهم لغة الشاعر. بما يحقق التوافق أكثر من تثبيت العلامة النصية في وجدان المتلقي. ومن هنا نجد أن الشاعر يعمد إلى تطويع أسلوب النهي، مردوفا بأسلوب النفي المرافق للأفعال ما يعطي تأثيرا لخطابه الشعري؛ لأنه يزيد طاقة الاستعمال التداولي التي توجه المرسل إليه، ومن ذلك قوله:

و لا تحـزن على ما فـات منهـا إذا مـا أنـت فـي أخـراك فـزتـا
فليـــس بنـــافع ما نلـت فيهـا مــن الفــاني إذا البــاقي حرمـتـا
و لا تضحـك مع السفهـاء لهــوا فإنــك ســوف تبكـي إن ضحكتـا
و كيف لك السـرور وأنت وهـن ولا تـدري أتـــفـــدى أم غلــقتـا
و سـل من ربـك التوفيـــق فيهـا واخلــص في الســؤال إذا ســالتـا[33]

حيث نجد النهي والنفي الحقيقيين في مطالع الأبيات(لا تحزن، وليس بنافع، ولا تضحك) تمهد لفكرتي الضحك والبكاء عند الشاعر، فضلا عن النفي الضمني والصريح (وكيف لك ... ولا تدري) في البيت الرابع؛ بوصفه سؤال وإجابة في الوقت نفسه؛ إذ يقصد منه تواصلية فعل الاستفهام والاستجابة عند المتلقي، بما يعطي مؤشرا تداوليا ينطلق للمتلقي عن حاله، بوصفها تعنى به كظاهرة تداولية، تستهدف تقويض ثنائية (الفرح / الحزن) في خارج ما يفهمه المرسل بعمق؛ لبناء فكرة أصيلة عند المرسل إليه من خلال علاقة المخلوق بربه من جهة، وعلاقته بالمحيط الذي يعيش فيه من جهة أخرى، بما يسمح له بالتعليق على هذه الثنائية تدخلا وتصحيحا، وقدرة الوظيفة التوجيهية في خلق نص يتفاعل مع المتلقي، وهذا يعني أن ما يرصفه من علامات للتوجيه نحو هذه الثنائية، وصلت إلى حدث التأثير في المتلقي بحيث كانت آلية تداولية صالحة للتوظيف، على أساس معرفة بالتصور الذوقي للمتلقي بوساطة خطاب التوجيه، الذي يظهر في البيت الأخير بنحو واضح عبر الجملتين الأمريتين (سل من ربك التوفيق، واخلص في السؤال)، ما يوجه وجدان المتلقي ويصرفه إلى منبع النجاح والفرح الحقيقيين. ويقصد بها (الذات الإلهية) المقدسة التي تحجب ما سواها من المخلوقات، التي كثيرا ما يسأل الإنسان منها، ويعتقد أن التوفيق ينحدر عنها؛ إذ تعطي بعدها التداولي من افتراض وجود مسبق للحال التي عليها المتلقي، ومن ثم تتحقق بذلك التواصلية من الافتراضات والاستفهامات المتداولة في بنية النص الشعري.

ـ ثالثا: الإستراتيجية التضامنية

لا ريب في أن المحيط النفسي الذي يطوق الشاعر، ويحيط بظروف ولادة النص الشعري، يشكل أهمية ذاتية تحتوي الأبعاد الاجتماعية للخطاب. وهو في ذلك الشأن يسعى إلى إبراز مكنونات النصوص، التي يمكن أن يصل بها إلى ما يمكن أن يضمن له التفاعل مع خطابه الأدبي. وهكذا عرّفت الاستراتيجية التضامنية بأنها (الإستراتيجية التي يحاول المرسل أن يجسد بها درجة علاقته بالمرسل إليه ونوعها، وأن يعبر عن مدى احترامه لها، ورغبته في المحافظة عليها).[34]

ومن هذا التعريف نفهم أن الشاعر يعتمد هذه الاستراتيجة؛ لغرض استمالة وجدان المتلقي، مع الاحتراز التام عن تخطي حدود العلاقة بين الطرفين، وهو ما يجعل المرسل يطمئن إلى سلامة

تبني هذه الإستراتيجية في خطابه الشعري. بعد أن يوثق عرى البعد الاجتماعي بين الطرفين، وضرورة التقيد بثقافة إنتاج الخطاب وجوهره؛ لأن (الخطاب القابل للفهم والتأويل، هو الخطاب القابل لأن يوضع في سياقه، بالمعنى المحدد سلفا).[35]

ومن الجدير بالذكر أن النص الأدبي يكون محاطا بعدد من الحواجز، التي تقع في المسافة المتمثلة بين المنشئ والمتلقي معا، ومن هنا تأتي الإستراتيجية التضامنية؛ لتقليل الفجوات الواقعية، بين المركز النصي والمحيط المتلقي، حيث يتشكل مغزى الخطاب النهائي. وهو ما أكده ميشيل فوكو بقوله: (انتاج الخطاب في كل مجتمع، هو في نفس الوقت انتاج مراقب ومنتقى ومنظم، ومعاد توزيعه من خلال عدد من الإجراءات، التي يكون دورها هو الحد من سلطاته ومخاطره).[36]

ومنه تتبين حقيقة العلاقة بينهما التي يُركن إليها، ما يعني وصول الأديب إلى مرحلة نجاح استراتيجيته هذه. وهذا يحتاج إلى جهد أدبي تنبعث منه علامات تحدد طبيعة تلك العلاقة، ومدى ما يكتسبه من تضامن. وبخلافه فإن ذلك ينعكس سلبا على العلاقة بين المرسل والمرسل إليه؛ لتتمثل (الإستراتيجية التضامنية من خلال علامات لغوية معينة، تشير إلى رغبة المرسل التضامن مع المرسل إليه).[37]

وهذا ما يمكن أن نلحظه في الدور الذي يؤديه المرسل في المجتمع، كأن يكون فقيها أو قاضيا أو شيخا في العلوم أو واليا، بما يتنسى له بناء خطاب يناغم نمط السلطة التي يناشدها؛ من أجل أن يبلغ الغاية في موضوعه الذي يبثه من مفردات نصوصه الحاملة لخطاب التضامن مع الفرد أو الرعية. فالعمل الأدبي لا يمكن أن يكون مستقلا بذاته؛ بسبب خضوعه لمناخات الخاصة، كما أكد ذلك تودوروف الذي يرى أن هذه الاستقلالية تسلبها (قوانين توجد خارجه وتتصل بالنفسية أو المجتمع أو الفكر الإنساني).[38]

وعند تتبع خطاب التضامن عند الألبيري، نجده حريصا عليه بنحو واضح؛ لطبيعة الفقيه الزاهد الذي له المكانة في الوجدان، وقد أفصح عن علاقاته المتنوعة. ولاسيما في مواطن معينة مع السلطة الحاكمة، فمثل بسلطته الروحية صوت الأمة، التي تأخذ بوجدان الحاكم للسير في حوائجها، منها خطابه للسلطان باديس (ت 365 هـ). عندما ولى ابن النغرلية اليهودي الوزارة خلفا لأبيه؛ فطغى

في البلاد، وتعالت أصوات الأندلسيين بالشكوى، فخرجت قصيدة الألبيري صوتا للمسلمين إزاء طغيان الوزير اليهودي. حتى وصفها أحد الباحثين أنها (ببساطتها ومشاعرها المشبوبة لون فريد من الشعر الأندلسي خلال قرونه الثمانية)[39]. وقد شرع تلك القصيدة، بقوله:

أ بـاديس أنت أمـــــرؤ حـــاذق تـصيـب بـظنـك نفـس اليقيــن
فكيـف اختفت عنك أعيانهـــم وفي الأرض تضـرب منهــا الـعيـون
و كيـف تـحـب فـــراخ الزنـــا وهـمّ بغّــضــوك إلـى العالمين ؟
و كيـف استنمـت إلـى فـاسـقٍ وقـارنــتــه و هــو بئــيس قريــن؟
و قــد أنـزل الله فــي وحــيــه يحـذر عـن صحــبة الفاسقيـن [40]

هنا نجد شروع الألبيري بأسلوب النداء بالحرف الهمزة؛ لا ليستثمر تواصليتها بنداء القريب مكانا ومنزلة، بل ليتجاوز تلك التواصلية عندما خاطب بها السلطان؛ فذوّب الفروق مع السلطان الذي دونه الحواجز. ولكن الملفت أنه لم يناديه بموقعه الرسمي بل باسمه (باديس)، ما يسير إلى أن (هذا الاستعمال ذو دلالات منها قربه منه، إما قربا ماديا أو قربا عاطفيا).[41] بما يؤكد أنه يريد الوصول إليه، عبر سلسلة من الوسائل الكفيلة إلى نجاح مسعاه، المتمثل في حجب ذلك اليهودي عن المنافع التي لا يستحقونها. وقد رسخ ذلك عندما استعمل المرسل (الألبيري) اسم المرسل إليه (باديس) دون منزلته؛ ثم عقب باستعمال الضمير(أنت)؛ لأهميته في تداول غرضه بوصفه يلفت الانتباه بطبيعته الإشارية، وهو ما يتجاوز ألفاظ (جلالتكم وسموكم) الرسمية، ومن بعدها كان لأسلوب الاستفهام، الذي خرج إلى وظيفة التعجب، والذي فرض نفسه في المناداة بنحو رأسي، وكثرة بث تساؤلات الحيرة والتعجب في ذهن السلطان، وما تؤديه من تواصلية اجتماعية للغة التضامن الشعرية، أثر في تبيين ضرورة نقل الرسالة التي يتضمنها حاجة المجتمع الغرناطي؛ حيث الأسئلة المثارة التي تعد ناقلة تداولية مهمة لمقصد الألبيري، الذي يثير تأملات باديس قراره بتولية اليهودي (الفاسق) وزارة المسلمين. وهو الشأن الذي يحتم على الألبيري أن يطلق ملاحظات كثيرة، تتوزع في هذه القصيدة. وتدعو باديس إلى التفكر بما داهمه من تعجب (كيف)، حيث الوصف الذي أرسله في باديس، من حنكته التي لا تتلاءم مع قراره بتقريب ابن النغرلية، مع التحذير الإلهي عن صحبة الفاسقين. وهو العارف بحقيقته الاجتماعية التي حصرها بين منطقتين من النص: إحداهما اختيارية مثلت ذوقه

الخاص (التولية)، والأخرى إلزامية تمثل واقع الوزير (الفسوق)، عبر عرض مقاربة اجتماعية تُعين خطاب التضامن.

لقد كانت الوظيفة الاجتماعية حاضرة بما يضمن قدرا من التأثير في السلطان باديس، عن طريق آليات متنوعة منها الموازنة التي أجراها بين اليهود و باديس نفسه؛ ليدخل السلطان نفسه عنصرا للتضامن مع قومه المسلمين، معتمدًا نجاحه في مشاعر نقلت القضية، و(استطاعت الألفاظ أن تصوره، وأن تنقله إلى مشاعر الآخرين)[42]. وهو ما جرى على لسان الألبيري، قائلا:

فقد ضجّت الأرض من فسقهم و كادت تميد بنا أجمعين
تأمل بعينيك أقطارها تجدهم كلابا بها خاسئين
و كيف انفردت بتقريبهم وهم في البلاد من المبعدين؟
على أنك الملك المرتضى سليل الملوك من الماجدين
و أن لك السبق بين الورى كما أنت من جلة السابقين[43]

ويمكن أن نلحظ استعمال فعل الأمر في قوله (تأمل)، ومقصديته التداولية المهمة؛ لأنه من الأفعال الإنجازية التي تدعو إلى بيان حال اليهود وقتذاك، الذي يمثلهم بوساطة تشبيهه البليغ (تجدهم الكلاب)، وهنا انتقل به من الأدنى إلى الأعلى رتبة مخالفا الرسمية الاجتماعية، ما يحدث قفزة في وظيفته الخطابية، تضع المرسل إليه، إزاء واقع من يدعو إلى تأمل ضحالتهم الاجتماعية. ومن ثم يطلق دعوته للتنفير منهم؛ لما تحمله من حال العلاقة الحالية التي تناقض تهميشهم، بما يوضحه الفعل الإخباري المقرر لحالهم (تجدهم). ويعمد بعدها إلى أسلوب الاستفهام الذي خرج إلى التعجب من تقريب أولئك المشتتين، مستثمرا طاقة التعجب التواصلية، التي تستميل المتلقي للدخول (في الأساليب ذات الشحنات الانفعالية الوجدانية).[44] وهنا درك أن الشأن قد تجاوز حده؛ لأن دولة الإسلام في الأندلس، لم تقف موقفا عدائيا من عامة اليهود. ولكن يبدو أن تولية ابن النغرلية جعلت بعض اليهود يسيرون في مركبه؛ لذا كان أن نظر الألبيري إلى ذلك، وأثار السلطان عبر حال رصفه لقبه (الملك المرتضى)، الذي هو من آليات الخطاب التضامني، التي تصنع الخطاب طبقا لاختيار المفردة المختارة (اللقب)؛ وفقا لطاقته التي تسوّر خطابا مناسبا يخلق التناقض حال اليهود

المقربين والسلطان. وهو ما يشكّل جزءا من بنية المسموع اللفظي الذي يعاضده ذكر الألقاب (سليل الملوك) و (جلة السابقين)، التي تشكل ضرورة في خطاب ينشر في محفل عام؛ لتدلنا إلى طريقة فضلى لاستعمال الإستراتيجية التضامنية على أساس مهم، وهو أن يكون نصح الألبيري خالصا عن كل غرض دنيوي أو منفعة شخصية، وهو الشأن الذي يجب أن يدركه المتلقي (السلطان باديس)؛ ليحقق التضامن نتيجته المرجوة في هذه الأبيات. بعد أن أسند إليها مقصدية تواصلية، تبدي رغبة الألبيري في إثبات الذات المسلمة إزاء تسلط اليهود، وما يحدثه من بنية استجابة سلبية من قبل المسلمين نحو تصرف سلطانهم هذا. وهو ما نقع عليه من ثمرة تواصلية للخطاب التضامني التوجيهي في القصيدة.

ومن هنا ندرك أن الخطاب التداولي التضامني في هذه الحال، يقوم على توظيف أقصى إمكانية لطاقات الأفعال والأسماء، التي تعاضد معطيات الجنسية والشخصة اليهودية، بما يقوي خطر المحظور منه، بما تبرزه إشارات الخطاب التداولية؛ حيث إيراد صور تلك الأحوال التي تبين أحوال اليهود وصنيع باديس لهم. ما يعني أن ثمة مخزون ذهني تمتع به الألبيري، وقام باستحضار الشاهد العميق في مقصديته متعاضد مع بعده الواقعي؛ عبر سلسلة من الأفعال الإنجازية ذات القيمة التواصلية؛ بوصفها (شكلا من أشكال السلوك الاجتماعي).[45] التي يسعى إليها الخطاب التضامني بما حتّم على الألبيري، أن يطلق العنان لمفرداته التي تدغدغ ذات السلطان باديس، وتبين حال مسلمي غرناطة، فقال في ذلك:

و رخّـــم قـــردهـــم داره وأجـــرى إليهـــا نمير العيـــون
فصـــارت حوائجنـــا عنـــده ونحـــن علـــى بابـــه قائمـــون
و يضحـك منـــا و من دينـــنا فإنـــا إلـــى ربنـــا راجعـــون
و لو قلـــت في مالـــه: إنـــه كمـــالك كنت مـــن الصادقيـــن[46]

وهنا نجده يستعمل الخطاب التضامني في شعره، عبر استثمار خاصيتي الدين المنحرف والثقافة الاستحواذية، التي يعتمدها في إضاءة المتن المركزي، وتوضيح جوانبه التاريخية والمعرفية والاجتماعية. ومن ثم تشكّل خطابها الذي يظهر طبيعة التضامن، عندما استعمل ضميري الجماعة

المتكلمة (نحن، ونا) اللذين أسسا بطبيعتهما الإشارية المتنوعة علاقة المسلمين بباديس، والعمل على تأكيد انتمائه إليهم بل تطوير تلك العلاقة؛ لتتحدى تغلغل ذلك اليهودي وتملكه عنان المسلمين، بما يمنح المقصد التداولي أهميته، حيث عند تمثل ثنائية (العزة/الذلة) التي تشكل عصب وجود المسلمين الاجتماعي؛ لذا رسم علامات ناعمة لليهود من الدنيا على حسابهم، إزاء خشونة واضحة من المسلمين ودينهم. وحرص على تراكم العلامات في الأبيات ما خلق طاقة إنجازية، تعتمد خلق شعور اجتماعي موازٍ مستقل، أحاطه بجسر واصل بين النص والخطاب، شكل الأول منهما مركزا للتضامن مع المسلمين إزاء اليهود. معتمدا أفعال وزيرهم الإنجازية (رخم داره، وأجرى نمير العيون، وصارت داره، ويضحك منا ومن ديننا)، التي أكدت العاقبة المزرية لصنيع السلطان باليهودي. على حين شكل الآخر وجودا حقيقيا في العلاقة الواجبة مع اليهودي. بما منحه أسلوب الشرط (ولو قلت...كنت)، وأهميته التداولية، ما يبعثه من إشارات عينها الدكتور صلاح فضل، بقوله: (مجموعة من العمليات السيمولوجية التي نأخذ أثناء جريانها مع إنتاج المعنى).[47] وعليه يعد خطاب الجنسية والدينية من الخطابات المؤثرة في الذهنية بنحو عام، عبر الركون إلى غرس التضامن بوساطة ثنائية (الأنا/الآخر)، ولاسيما إن كانت تتناول شخصا متنفذا في دولة المسلمين، ينتمي إلى جنس بشري عرف بغلبة النزعة النفعية على علاقاته الاجتماعية، ما يؤدي به إلى تهميش الآخر في المعتقد والعادات الاجتماعية. الأمر الذي تطلب من الألبيري أن يستحضر ملفوظات شعرية مؤثرة، تستعمل في خطاب تداولي يفهمه المتلقي. وبناء على ذلك فهو لم يكتف بما يضمن له الوقوف إلى جنب المسلمين، إزاء تسلط هؤلاء اليهود على مقدراته، بل سعى لتوظيف التضامن مع شكواه؛ للوصول إلى الفعل التضامني الأكبر، وهو تصفية ذلك الوزير المتصرف بمصير البلاد.[48]

ومن هذه النزعة شكّلت الإستراتيجية التضامنية ركنا واضحا في خطاب الألبيري التداولي، بخاصة بعدما (أجلي عن غرناطة من قبل السلطان، بعد أن أكثر التحريض ضد اليهود، والمساءلة في أخبار الدولة، والاعتراض على الترف والسرف في أجهزة الدولة وبين الناس).[49] فأورد خطابه التضامني في بنية نصية مستقلة تتفاعل مع امتداداتها؛ لتمخض عن محكي داخلي يخص حاله، كما في قوله:

ألا حي العقاب و قاطنيه وقل: أهلا به و بزائريه

حلـلت بــه فنفّــس مــا بنفسي وأنســني فمــا استــوحشت فيـــه
و كــم ذيــب نجــاوره ولكـــن رأيـــت الذئـــب أســـم من فقــيه
و لـــم أجـــزع لفقـــد أخ لانـــي رأيت المرء يــؤتـى مـــن أخـيـــه
و أيــأسنــي مـــن الأيـــام أنـــي رأيـت الوجــه يزهـــد في الوجيــه
فآثــرت البعــاد علــى التــداني لأنــي لــم أجــد من اصطفـــيه[50]

فهو قد جعل من المعالم التي وجدها في (حصن العقاب) الأندلسي، عماده في كسب تضامن مجتمعه مع ما يشعر به، فما أن نزل الحصن المذكور حتى بانت معه مؤشرات الانتماء لبلدته، التي شرعها بـ(ألا) الاستفتاحية، وهي من الوسائل التواصلية، التي تجلب الأسماع إلى خطابه. وهو ما يستثمره من مقاصد تضامنية، تبعث المتلقي إلى الاستشعار بما يريد قوله، مطوعًا صيغ متنوعة للحديث عن الذات المخاطِبة (تاء الفاعل، والضمير أنا المستتر)، وما يدور في فلكهما من نسبة الأفعال إليه؛ ليمنحه طاقة تداولية لحاله التي ازدريت فهان عليه ما سواها، ومن ثم ليستميل الوجدان إلى سوء حال الفقيه من جهة، وعدم الإسهام في تطويرها من جهة أخرى. كما تبين أنَّ الرجل يطلق تلك الآهات بعد أن آيس من علاقات مجتمعه، ما يعني أن ثمة شؤون نفسية كانت تحاصر الرجل؛ لذا وظّف مفردات الضنك الاجتماعي (الوحشة، وأجزع، وآيس، وزهد، والبعد)، بما يثير الانتباه إلى حال فقيه زاهد ينفر من فقهاء بلدته، ومن أخوته بعدما بدت له سوءاتهم، فطفق يخص من ذائقة ذاتية، عندما كرر الفعل المنجز (رأيت) ما يدل على يقينه، الذي داول تلك الأفكار والتضامن معها، حيث الوقوف على تجمّد الحياة بتصنم الأشخاص، بما لم يعد معه قادرا على تحقيق متطلبات المتغير المعرفي والاجتماعي. ومن ثم تعمل على الإمساك بالمداخل الأساسية لدلالات النص السطحية والعميقة معا، المتمثلة بأفعال منجزة كما في (آثرت البعاد، لم أجد من اصطفيه)، وهو الشأن الذي حدد المقصد الأبرز الذي جعل المتلقي مطوقا بشعور التضامن مع خطاب الشاعر.

ـ رابعا: الإستراتيجية التلميحية

من الاستراتيجيات المهمة التي يعتمدها المرسل في خطابه؛ لينجز بها عملا معينا بعدما يعنى بما يؤسسه من خطابات، ذات صبغة مجازية على احتساب أن النص حامل لثقافة ورؤية معينة، سواء أكانت مادية أم معنوية قولا أم ممارسة فعلية. ومن ثم فإن الخطاب لا ينحصر أثره

التداولي في الأفكار المباشرة، بل فيما يلمح منه أيضا وهو ما تقوم به الاستراتيجية التلميحية؛ فيعتمد عناصر سياقها (لينجز بها أكثر مما يقوله إذ يتجاوز قصده مجرد المعنى الحرفي لخطابه).[51]

وعليه فهكذا نوع من الاستراتيجيات يميل إلى الثراء اللغوي للمفردة، الذي يعطي للمعنى المطلوب أكثر من حيز؛ للتحرك ضمن مستويات أدبية للمفردة، ما يربط الخطاب بهذه الإستراتيجية بسياقه التداولي وفقا لمجازات شكلية موحية، تظهر مجموعة من السياقات الثقافية والتاريخية والسياسية والاجتماعية. ومن هنا يتعامل المرسل مع المتلقي بما يمتلكه من سياق منتج للمعنى التلميحي، أكثر من اعتماد معنى معجمي متداول، سواء أكانت اسما أم فعلا عبر ضخ العناصر التي ترتقي بثرائها التداولي؛ لأن وظيفة التلميح كما بينها عبد الملك مرتاض، تعنى أساسا (بفهم الجملة الواحدة من الكلام فتذهب في البحث عن طبيعة وضعها انطلاقا من العناصر المعجمية إلى المؤشرات النظمية أو المعطيات السياقية).[52]

وهذا يعني أن رؤية الأديب تنتج أنساقا أدبية ظاهرة (مباشرة)، أو متوارية (غير مباشرة) تعتمد الإيحائية التي تتمثل في طبيعة الثقافة نفسها؛ إذ تتوارى وراء المعنى الظاهر في شكل يعمل على دلالة مقصودة متوارية خلف إشارات الخطاب المعلن. وهو ما يؤكد وظيفة الخطاب الاستراتيجية الرئيسة التي تسعى إليها، ما يؤكد أن (المبدعين والشعراء يوظفون كلمات و تعابير وأسماء أعلام لها مقصدية مباشرة وغير مباشرة، قد تدرك بطريقة ظاهرة، أو تفهم بالتضمين والتلميح).[53]

عند مطالعة معالم التلميح في شعر الألبيري، نجده ينطلق من مسلمات اجتماعية وثقافية وسياسية وأخلاقية، تغذي الخطاب الذي يتجلى علامةً ثقافية، تحمل مقاصد الشاعر الأصلية المباشرة منها وغير مباشرة، هذه الأخيرة تظهر في علامات نصية ذات أبعاد تلميحية، تهدف إلى كشف (الرسالة) التي تترعرع في سياق النص وخصائصه الفنية. والملاحظ أن خطاب التلميح كان الأقل حضورا؛ لطبيعة الألبيري التي تصارح بقولها وفعلها، ومن ثم لا تلجأ إلى التلميح إلا في ظروف خاصة. ومن ذلك ما نلقاه في ندب مدينته ألبيرة التي يلمح إلى تهميشها على الرغم من علو مكانتها، قائلا:

أتنـــدب أطـــلال البـــلاد ولا يـــرى لألبيـــرة منهـــم علـــى الأرض نـــادب؟
على أنهـــا شمس البـــلاد وأنسهـــا وكل سواهـــا وحشـــة و غيـــاهب
و كم مـــن مجيب كـــان فيهـــا لصارخ تجـاب إلى جـدوى يديـــه السباسب!
و كم من نجـــيب أنجبـــتـــه و عـــالم بأبوابهـــم كـــانت تنـــاخ الركـــائـب!
و كم بلغت فيـها من الأماني وقضيت لضـب لبـــانـــات بهـــا و مـــآرب!
و كم طلعت منها الشموس وكم مشت علـــى الأرض أقـمار بهـــا وكـواكب!
و كم فرست فيها الظـباء ضراغمـــا وكم صرعت فيها الكماة الكواعب![54]

هنا نرى أن الشاعر يعمد إلى وصف الخراب، الذي أوصل مدينته ألبيرة إلى حال مزرية، وقد أطلقه في الاستعمال المجازي للهمزة (أ تندب)؛ لأنها (أوسع استعمالاً وتصرفاً من بقية ، مستثمرا بذلك طاقتها المجازية التي خرجت للتعجب في خطابه الرثائي؛ ومن ثم أعقب [55]الأدوات). ذلك بآليات استراتيجية التلميح وفق استلزامها النصي؛ كما في ترديده المتعاقب لـ(كم) الخبرية سبع مرات، وما يمثله هذا الترديد من أهمية تداولية؛ لأنه يبين اهتمام الألبيري بالمتلقي وما يثيره من أخبار تعجبية متعاقبة لإهمال ألبيرة، فيسعى إلى تكرارها بنحو مقصود معبرا بذلك عن الجزم بتلك الأحوال التي ساقها في محتوى الخطاب، وهو في الوقت نفسه تعبير عن موقفه الشخصي بشأن مدينته، ويمثل موقفا ساخطا من الحكام الذين أهملوا تلك المدينة والتفتوا إلى غيرها، مستثمرا آليات الخطاب التلميحي الذي انطلق من تشبيهها بـ(شمس البلاد)، من دون أن يذكر وجه الشبه ما يلمح به لحالها الجليلة، التي أردفت بأحوال أخرى من النجدة والنجابة والمنى و النور و الشجاعة، ولكن في صور كنائية متعاقبة تدل على صفة تلك المدينة الجليلة، ما زاد من الوجود التلميحي في خطاب الشاعر؛ ليكوّن معلما قائما على منهجية إجرائية تخص ذاته المكتوية، وتعرّض بمن أهمل ألبيرة وشأنها، مع ما في الذهن من شجون، تأخذ على عاتقها أسئلة تتعلق بآليات الإنشاء الخبري والتشبيه مع الكنايات، التي هي من مصاديق التلميح التي تتم بذكر اللفظ والمراد مرادفه؛ كما في(بأبوابها تناخ الركائب) و(طلعت منها الشموس) مكنيا عن علمها وأعلامها، و(صرعت الكماةَ الكواعبُ) مكنيا عن جمال نسائها الذي قتل الأبطال. وهي بجميعها أدوات تلميحية سخرها للتعبير عن طبيعة الناس الذين يشملهم الخطاب من داخل ألبيرة، كذلك بمن يرسل إليهم ذلك التلميح الذي عدل به عن التصريح؛

ليضمن استمالة الوجدان نحو ألبيرة، التي أنزلت في مقام أدنى حتى أمام (أطلال البلاد).

ومن ثم كان لهذه الاستراتيجية حضورها في شعره؛ ليرصفها في إنتاج خطاب شعري يؤدي المعنى الذي يلمح به، بما تمنحه الفنون البلاغية من مساحة واسعة؛ للتعبير بشكل يجعل الخطاب التلميحي هو المقصود، ونلمس ذلك في قوله:

تـفــت فــؤادك الأيـــام فـتـا وتنـحت جسمــك الساعات نحتـا
و تدعوك المنـون دعـاء صدق ألا يــا صــاح أنت أريــد أنــتــا
أراك تحــب عرســا ذات غدر أبت طــلاقهــا الأكيـــاس بـتـا
تنــام الدهــر ويحـك في غطيط بهـــا حتـــى إذا مت انتــبهتـا
فكــم ذا أنت مخــدوع و حتـى متــى لا تـرعـوي عنهـا وحتى؟[56]

شكّل التعبير عن القصد بتراكيب مجازية، ركيزة التلميح إلى ما يعتري الإنسان من غفلة في هذه الدنيا، ما يستدعي عددا من التراكيب الإنشائية خبرية التي تبرز حقيقية الإنسان في هذه الحياة، بدلالتها الصورية مثل الاستعارة التجسيمية في (تفت فؤادك الأيام فتا)، و(تنحت جسمك الساعات)، مع ما تملكه من بديهيات متسالم عليها، وتعبير يثير ذهن المتلقي إلى أن نضارة جسمه في زوال. وعلى وفق ذلك أرسل الشاعر الأفعال الإنجازية (تدعوك، وأريد، وأبت) مسندة إلى غير فاعلها الحقيقي، ما يعني أن تداولية خطاب الغفلة عن الموت، يعتمد الدلالة المجازية في إسناد الحقائق الثابتة، ما يؤكد أن دراسة الخطاب التواصلي (تبقى في حاجة إلى استحضار كل الحقوق المعرفية المهتمة بالخطاب).[57] بما يشكّل معه أشكالا تلميحية تستثمر في تدعيم النظم الاجتماعية. حتى إذا ما وصل إلى (تنام الدهر ويحك في غطيط ... حتى إذا ما مت انتبهتا)، تتبلور لديه صورة الإنسان الغافل في ذروتها، ما يعني أن الألبيري كان معني بأصل الفكرة (الغفلة عن الموت)، ولكن استعملها في خطابه بقصد يرتقي بمعناه الدلالي الأصلي؛ ليرسخ الفارق بين المعنى المباشر والمعنى الملح له، ولاسيما أن المخاطب هو متلقٍ غير مقصود، وعليه عمل على تدويل هذه الصورة في معالم مجازية، استنفرت أفعالا ذات مرجعية معرفية تمد الخطاب التلميحي بطاقته التواصلية.

وهكذا تبدو أهمية الوظيفة التلميحية لشعر الألبيري، فيما تحيطه من التعامل مع الخطاب الأدبي، انطلاقا من كونه ظاهرة اجتماعية، فيعمد هذا النقد التداولي إلى مقاربته في ضوء رؤية ثقافية شاملة، بلحاظ الذات المرسلة وموقعها المرجعي والثقافي والاجتماعي، التي تسير بموازاة أدبية النصوص ووظيفتها التداولية، وهو ما يمكن أن نلمسه في قوله:

و ذو غنـــى أوهمتـــه همـتـــه أن الغنـــى عنـــه غيـــر منـــفصـــل
فجـرّ أذيـــال عجـبـــه بطـــرا و احتـــال للكبـــرياء فـــي حلـــــل
بزتـــه أيـــدي الخطـــوب بزتـــه فاعتـــاض بعـــد الجـــديد بالسمـل
فلا تثـــق بالغنـــى فآفـــتـــه الـ فقـــر وصـرف الزمـــان ذو الدول [58]

هنا يعرض الألبيري في خطابه التلميحي الذي يتكئ على نكرة غير مقصودة (ذو غنى)؛ ليخرج بالتلميح له خارج حدود الذات المعروفة، التي يتجنب ذكرها هنا صراحة، مثنيا بعدها على ما ينصب من سمات المستعار منه. وهو الذي بان في التعابير الاستعارية التي تتميز بطبيعتها الإيحائية التلميحية، كالتجسيم في (أوهمته همته)، والتجسيد في (أذيال عجبه)، و(أيدي الخطوب)، وهنا يعبر الألبيري عن مرجعية الخيلاء التي نقلت منها؛ لتؤدي دورها في عملية بيان الخصائص المحددة، حيث التلميح إلى الانتقال في الأحوال من اليسر إلى العسر. وقد اقتصر فيها على سمات الشخصية التي يخاطبها، وهو يساير الأفعال المنجزة التي تبدو أن وظيفتها الظاهرية الإخبار كما في (جرّ، وبزّته، واعتاض)، ولكن حقيقتها تبدو في ما تعاضدها مع ما استعيرت لأجله، ضمن علاقة منظمة بين اللفظ والمعنى المتداول، الذي يمنح تقلبات الزمن خصائصها، عبر استراتيجيته التلميحية الهادفة، من حيث بيان مقصدية الوظيفة الاستراتيجية، وهي (أن فعلا ما موجه على أساس فعل محتمل لشخص آخر تتضمنه خطة بشكل متوقع).[59] بعدما استعمل الاستعارة في أكثر من موضع؛ ليصل بها إلى التلميحات بتلك السمة، التي يعرضها بأبيات تتوافر على رصيد وافر من معاني الموعظة، ويمنحها بعدها المقصود بما لا يتبادر إلى الذهن مباشرة، وهو ما يعني أن تلك الإشارات التداولية تلمح إلى تلك الصفات التي اشتهر بها المستعار منه. ما يدل على كفاءة الألبيري التداولية في قراءة الأحوال، وفهمه لغايات معينة، تراعي ما يتطلبه سياق تداولي يوازي تناوب حال الدنيا.

ومن مواطن استعمال الخطاب التلميحي تعريضه بحال الأمم السابقة، ولاسيما عندما مر على الملوك الغابرين؛ ليبين ممارسات متنوعة لمّح بها إلى ما يظهر معه الدعوة إلى الصلاح في هذه الدنيا، ولاسيما في ما يستثمر ثنائية (الأنا/ الآخر)، وما يعطي ذلك من مساحة تفاهم بين طرفي الخطاب المتداول، ولاسيما عندما عرض للتقابل بين ذاته والملوك أو بين بني جلدته والغابرين، من الأمم السالفة، ومن ذلك قوله:

أين الملـوك و أيـــن ما جمعوا وما ذخروه من ذهب المتاع الـذاهب؟
و من السوابــغ و الصوارم والقـنـا ومـن الصـواهل بـُدنٍ و شـوارب
كانـت سوابقهـا تحمـــل منهـم أقمـــــار أندية وأســـد كتـائب
كانـوا ليـــوث خفيـــة لكنهـــم سكنوا غياض أسنــة و قـــواضب
قصفتهـــم ريح الـــردى ورمتهـم كمـــا المنون بكـل سهم صائب[60]

عندما استعمل الألبيري أداة الاستفهام (أين) للتساؤل، والتعجب من حال الملوك السابقين، لم يتركه دون جواب وإن تأخر بعد أربعة أبيات؛ ليمكن إستراتيجيته التلميحية بين هذه المسافة من الخطاب الشعري، وليبين أن تساؤله عن الملوك كان يحمل قوة إنجازية، ضعّفها الجواب عندما خطا إلى الأمام في قوتها التداولية، التي شحنت بكل ما يقرع السمع من حالهم المتنعمة والرافلة؛ ليطلقها في جمهور من المتلقيين، سواء أكانوا في بلدته وزمانه أم في أزمنة وأمكنة أخرى؛ لعلمه أن لا أحد ينكر ما يتداوله من مفردات قريبة من الفهم، وإن كانت مجازية اللبوس. عندما خرج علينا في صور تشبيهية بليغة متنوعة، ظهرت في (كانت سوابقها تحمل منهم أقمار أندية)، و(كانوا ليوث خفية)، ما يحجب وجه الشبه في التشبيهين، وهو من الآليات التي تنتمي إلى الاستراتيجيبة التلميحية، ومن ثم فقد منحه بعده التلميحي الذي يدعوه لتأمل حال أولئك القوم، عندما يستدعي المتلقي للتفكير به. وهو مما يؤكد عليه الخطاب التداولي الذي يسعى إلى جعل المتلقي يفكر بوجه الشبه الذي يقصده. ومن هنا فليس التشبيه هو الذي يداول معنى الشجاعة المقصود، بل ما ينضوي وراء هذا التركيب وهو وجه الشبه (المحذوف) الذي يدعوه للتأمل. ومن تلتئم الاستراتيجية في أسلوب استعاري مركب تداخل فيه التجسيم مع التجسيد (قصفتهم ريح الردى)، ما يعلي طاقتها التواصلية عند متلقي النص، الذي يجيب فيه عن تساؤله المشروع. وهو ما يتمثله وجدان المتلقي للمشاهد التلميحية،

التي تخص ملوك عصره، الذين لمح بذكرهم؛ لحساسية الموقف وأنهم لا يتقبلون مثل هكذا تذكير، بخاصة في استعارة الفعل (قصف)، وما يمثله من وقع على السامع، فعمد إلى التلميح بمصيرهم، فضلا عن أبناء جلدته، الذين يعرفهم بحال السابقين بصورة غير مباشرة.

ـ نتائج البحث:

بعد أن أنهى الباحث في هذه الدراسة الموجزة، في أدبيات الخطاب التداولي ضمن المناخ الأندلسي، التي انتقت انتقاء شعر أبي اسحاق الألبيري، ميدانا للدرس التداولي المتشكل باستراتيجيات الخطاب، التي تمده بكينونته الاجتماعية، عبر ما تبعثه من إنتاج للمعاني المتداولة في النهايات المتنوعة، ولاسيما ما بان في خريطة الخطاب، الذي يقدم معرفة متكاملة متضامنة، تشكل نوعا من الحوار المؤسس مع الآخر أو المرسل أو المتلقي، فللباحث أن يضع أهم ما توصل له في هذه الاستراتيجيات، التي بانت في خطاب شعري لفقيه أندلسي، تفاعل مع محيطه في مختلف المناسبات، بما شكّل صورة للخطاب الأدبي والفقهي العام وقتذاك:

_ كان للاستراتيجية الإقناعية أن تقدم خطاب الألبيري في مشاهد حجاجية، تتقدمها أساليب النفي بالقصر والحصر، التي اعتمدها الألبيري في هدم قناعات المتلقي وبناء قناعاته الشخصية، بما يبطن ذلك كله من استنتاج منطقي للحجج ويعزز قوتها، عاونه في ذلك الروابط الحجاجية، التي داولت فعل التأثير في مجتمعه، وما حققه من نجاح في هذا الشأن نتيجة التسليم بمقتضى الآليات الحجاجية.

- سعى الألبيري في استراتيجيته التوجيهية نحو الفعل التأثيري الأكبر، بحسب ثنائية (الضياع/الحضور)، ما يؤكد أن الشاعر لم يقصد الوصف فحسب، بل كان همه معالجة أحوال المتلقي التي تتضمن التقرير والإثبات. بحسب علامات التقرير والإثبات التي صدرت من أبياته. التي أحدثت ردة فعل إيجابية ضمن بنية الاستجابة صاغت حضورها بشكل واضح في وجدان المتلقي.

_ اعتصرت استراتيجية التضامن ردة فعل الألبيري الفقيه، تجاه الفعل الإنجازي التداولي، عبر التفاعل الشخصي إزاء تولية باديس اليهود شؤون المسلمين؛ بوصفه فعلا راع الشاعر وخلق آثارا خطيرة على

المسلمين، ومن ثم ربطه بذاته الشاعرة؛ لأنها متلقية للفعل ومرسلة له في الوقت نفسه، فكانت نتيجة هذا الفعل كسب تضامن السلطان بوسائل تداولية، عمل الفعل التضامني فيها على فتح المغلق.

ـ سارت الإستراتيجية التلميحية في علاقات مجازية، سعت إلى كسب وجدان المتلقي؛ لضمان عرض حال الدنيا، وهو الشأن الذي يكشف الهوية الشخصية للمرسل، وقدرة تشكلها بوصفها عنصرا مهما حوَّل المجاز إلى واقع عمل، عن طريق ما يبثه من حال الدنيا التي تعزّز إيمان المتلقي، ما جعل التشبيهات والاستعارات، آليات تداولية مؤثرة، في عملية تشكيل الخطاب التلميحي.

ـ مصادر البحث ومراجعه:

ـ أساليب الطلب عند النحويين والبلاغيين: د.قيس إسماعيل الأوسي، مطبعة أسعد، بغداد، 1976.

ـ استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية: عبد الهادي بن ظافر الشهري، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط1، بيروت، 2004.

ـ أسلوبية السؤال (رؤية في التنظير البلاغي): د.عيد بلبع، دار الوفاء، القاهرة، 1999.

ـ بغية الملتمس في تراجم رجال الأندلس: دار الكتاب العربي، القاهرة، 1967.

ـ بلاغة الخطاب الإقناعي نحو تصور نسقي لبلاغة الخطاب: د. حسن المودن، دار كنوز المعرفة، عمان، 2013.

ـ بلاغة الخطاب وعلم النص: د. صلاح فضل، مكتبة لبنان ناشرون، والشركة العربية العالمية للنشر لونجمان، ط1، بيروت، 1986.

ـ تاريخ مسلمي الأندلس: دوزي، مطبعة ليدن، 1932.

ـ التداولية عند العرب: مسعود صحراوي، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، 2005.

ـ الحجاج في التواصل: فيليب بروطون، ترجمة محمد مشبال، عبد الواحد التهامي، المركز القومي للترجمة، ط1، القاهرة، 2013.

ـ دراسات في التاريخ والأدب والفن الأندلسي: محمد حسن قجّة، الدار السعودية للنشر والتوزيع، ط1، الدمام، 1985.

ـ ديوان أبي اسحاق الألبيري الأندلسي: تحقيق: د. محمد رضوان الداية، دار الفكر المعاصر ببيروت، ودار الفكر بدمشق، ط1، دمشق، 1991.

ـ سراج الأدباء ومنهاج البلغاء: تحقيق محمد الحبيب خوجة، دار الغرب الإسلامي، ط3، بيروت، 1989.

ـ الشعرية: تيزفتان تودوروف، ترجمة محمد الولي، وحنون مبارك، منشورات الاختلاف، ط1، الجزائر: 1988.

ـ صحيح مسلم: مسلم بن الحجاج القشيري، تحقيق نظر محمد الفاريابي، دار طيبة، ط1، مكة المكرمة، 2006.

ـ في القول الشعري: د.يمنى العيد، دار توبقال، المغرب، 1987.

ـ قضايا الشعرية، ترجمة: محمد الولي ومبارك حنون، دار توبقال للنشر، ط1، الدار البيضاء، 1988.

ـ مدخل إلى علم النص اللغوي، فولفانج هاينة مان وديتر فيهفجر، ترجمة: سعيد حسن بحيري، مكتبة زهراء الشرق، ط1، القاهرة، 2004.

ـ مدخل إلى اللسانيات: محمد علي يونس، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط1، الإمارات، 2004.

ـ اللسان والميزان أو التكوثر العقلي: د. طه عبد الرحمن، المركز الثقافي العربي، ط1، الدار البيضاء، 1998.

ـ لسانيات النص: محمد خطابي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1991.

ـ اللغة والحجاج: أبو بكر العزاوي، العمدة في الطبع، ط2، المغرب، 2006.

ـ مع شعراء الأندلس والمتنبي: إميليو غارثيا غومث، تعريب: د. الطاهرأحمد مكي، دار المعارف، ط3، القاهرة، 1983.

ـ مقدمة في علمي الدلالة والتخاطب: محمد يونس علي، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط1، الإمارات العربية المتحدة، 2004.

ـ النقد الأدبي أصوله ومناهجه: سيد قطب، دار الفكر العربي، ط2، القاهرة 1954.

ـ النقد النصي وتحليل الخطاب نظريات ومقاربات: د. نبيل أيوب، دار ناشرون، ط1، بيروت، 2011.

ـ نظام الخطاب: ميشيل فوكو، ترجمة محمد سبيلا، دار التنوير، ط3، بيروت، 2012.

ـ نظرية النص الأدبي: عبد الملك مرتاض، دار هومة، الجزائر، ط1، 2007.

(الرسائل والأطروحات الجامعية)

ـ الأحاديث القدسية من منظور اللسانيات التداولية:حورية رزقي، مذكرة ماجستير، كلية الآداب والعلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة محمد خيضر، الجزائر، 2006.

(البحوث العلمية في الدوريات الجامعية وغيرها)

ـ استراتيجية الخطاب الحجاجي دراسة تداولية في الإرسالية الإشهارية: د. بلقاسم دفة، مجلة المخبر، جامعة بسكرة، الجزائر، العدد 10، 2014.

ـ التداولية وآفاق التحليل: شيتر رحيمة، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، العدادن 2و3، 2008.

ـ التداولية وقصدية النص، في المفاهيم والحدود: د. ذهبية حمو الحاج، مجلة جيل للبحث العلمي، السنة 2، العدد 10، بيروت، 2015.

ـ الخطاب التواصلي من الدلالات إلى التداوليات والسيميائيات (الضمائر الشخصية الإحالية أنموذجا): حسن كون، مجلة جيل للبحث العلمي، السنة 2، العدد 11، بيروت، 2015.

(المواقع الألكترونية)

ـ التداوليات وتحليل الخطاب: د. جميل حمداوي، موقع الألوكة الألكتروني، www.alulkah.net ، ط1، 2015.

الهوامش

[1] مقدمة في علمي الدلالة والتخاطب: محمد يونس علي، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط1، الإمارات العربية المتحدة، 2004: 13.

[2] التداوليات وتحليل الخطاب: د. جميل حمداوي، موقع الألوكة الألكتروني، www.alulkah.net ، ط1، 2015، 45.

[3] قضايا الشعرية، ترجمة : محمد الولي ومبارك حنون، دار توبقال للنشر، ط1، الدار البيضاء، 1988: 35.

[4] التداولية وآفاق التحليل: شيتر رحيمة، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، العددان 2و3، 2008: 13.

[5] التداولية وقصدية النص في المفاهيم والحدود: د. ذهبية حمو الحاج، مجلة جيل للبحث العلمي، السنة الثانية، العدد 10، بيروت، 2015: 135.

[6] يعود مصطلح الاستراتيجية إلى أصل عسكري، يشير إلى أهداف عسكرية بعيدة المدى. ومن ثم توسعت لتتداول اليوم في الحياة، وبلحاظ عام تعرف الاستراتيجية: بأنها مجموعة عمليات تهدف إلى معالجة مشكلة معينة، أو القيام بمهام لبلوغ غايات محددة. ينظر: مدخل إلى علم النص اللغوي، فولفانج هاينة مان وديتر فيهفجر، ترجمة: سعيد حسن بحيري، مكتبة زهراء الشرق، ط1، القاهرة، 2004: 269.

[7] الحجاج في التواصل: ترجمة محمد مشبال، عبد الواحد التهامي، المركز القومي للترجمة، ط1، القاهرة، 2013: 18.

[8] استراتيجية الخطاب الحجاجي دراسة تداولية في الإرسالية الإشهارية: د. بلقاسم دفة، مجلة المخبر، جامعة بسكرة، العدد10، السنة 2014: 496.

[9] ينظر: سراج الأدباء ومنهاج البلغاء: تحقيق محمد الحبيب خوجة، دار الغرب الإسلامي، ط3، بيروت، 1989: 316.

[10] استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية عبد الهادي بن ظافر الشهري، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط1، بيروت، 2004: 445.

[11] قدم أوستين تقسيما للأفعال بحسب وظيفتها التداولية: فكان الأول فعل تلفظي (فعل القول) ذي وظيفة إخبارية، بحسب نشاطه المتمثل بإنتاج قول ذي دلالة تخضع للصوت والتركيب والدلالة. والثاني فعل انجازي (المتضمن في القول): ذي وظيفة انجازية، يدل على معنى انجازي مباشر (تقريري) أو غير مباشر (مجازي) يحدد السياق. والثالث فعل تأثيري (الناتج عن القول): ذي وظيفة توجيهية وإقناعية تؤثر بالمتلقي إثر الفعل التلفظي.ينظر:التداولية عند العرب: مسعود صحراوي، دار الطليعة للطباعة والنشر،بيروت، 2005: 41_43.

[12] ديوان أبي اسحاق الألبيري الأندلسي: دار الفكر المعاصر ببيروت، ودار الفكر بدمشق، ط1 1991، دمشق: 122.

[13] اللغة والحجاج: أبو بكر العزاوي، العمدة في الطبع، ط2، المغرب، 2006: 65.

[14] ديوان أبي اسحاق الألبيري الأندلسي: 80.

[15] صحيح مسلم: مسلم بن الحجاج ، تحقيق نظر محمد الفاريابي، دار طيبة، مكة المكرمة، 2006: 2/ 222.
[16] بلاغة الخطاب الإقناعي نحو تصور نسقي لبلاغة الخطاب: د. حسن المودن، دار كنوز المعرفة، عمان، 2013 : 24.
[17] مع المتنبي و شعراء الأندلس: إميليو غارثيا غومث، تعريب: د. الطاهر أحمد مكي، دار المعارف، ط3، القاهرة، 1983: 91.
[18] ديوان أبي اسحاق الألبيري الأندلسي: 47.
[19] بغية الملتمس في تراجم رجال الأندلس: دار الكتاب العربي، القاهرة، 1967: 225.
[20] ديوان أبي اسحاق الألبيري الأندلسي: 141.
[21] استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية: 322.
[22] مدخل إلى اللسانيات: محمد علي يونس، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط1، الإمارات، 2004: 99.
[23] الأحاديث القدسية من منظور اللسانيات التداولية: حورية رزقي، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في علوم اللسان، كلية الآداب والعلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة محمد خيضر بسكرة، الجزائر، 2006: 124.
[24] استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية: 323.
[25] ديوان أبي اسحاق الألبيري الأندلسي: 25.
[26] في القول الشعري: د.يمنى العيد، دار توبقال، المغرب، 1987: 177.
[27] ديوان أبي اسحاق الألبيري الأندلسي: 26.
[28] النقد النصي وتحليل الخطاب نظريات ومقاربات:د. نبيل أيوب، دار ناشرون، ط1، بيروت، 2011: 231.
[29] ديوان أبي اسحاق الألبيري الأندلسي: 27.
[30] التداولية وقصدية النص، في المفاهيم والحدود: 147.
[31] ديوان أبي اسحاق الألبيري الأندلسي: 27.
[32] اللسان والميزان أو التكوثر العقلي: د. طه عبد الرحمن، المركز الثقافي العربي، ط1، الدار البيضاء، 1998: 215.
[33] ديوان أبي اسحاق الألبيري الأندلسي: 30.
[34] استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية: 257.
[35] لسانيات النص: محمد خطابي، المركز الثقافي العربي، ط1، الدار البيضاء، 1991: 33 .
[36] نظام الخطاب: ترجمة محمد سبيلا، دار التنوير، ط3، بيروت، 2012: 8.
[37] استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية: 257.
[38] الشعرية: ترجمة محمد الولي، وحنون مبارك، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 1988: 23.
[39] دراسات في التاريخ والأدب والفن الأندلسي: محمد حسن قجّة، الدار السعودية للطباعة والنشر، ط1، الدمام، 1985: 165.
[40] ديوان أبي اسحاق الألبيري الأندلسي: 110.

41 استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية: 270.
42 النقد الأدبي أصوله ومناهجه: سيد قطب، دار الفكر العربي، ط2، القاهرة 1954: 19.
43 ديوان أبي اسحاق الألبيري الأندلسي: 110.
44 أسلوبية السؤال (رؤية في التنظير البلاغي) د.عيد بلبع، دار الوفاء، القاهرة، 1999 : 61.

45 الأحاديث القدسية من منظور اللسانيات التداولية: 122.
46 ديوان أبي اسحاق الألبيري الأندلسي: 112.
47 بلاغة الخطاب وعلم النص: مكتبة لبنان ناشرون، والشركة العربية العالمية للنشر لونجمان، ط1، بيروت، 1986: 136.
48 كان من آثار هذه القصيدة اشعال الثورة في نفوس الغرناطيين، ضد ابن النغرلية اليهودي، وقتله وصفى نفوذ أسرته، كما صفي النفوذ اليهودي في مدينة غرناطة كافة. وآثروا العيش في ظل المسلمين، دون طمع بأي منصب في الدولة، ينظر: تاريخ مسلمي الأندلس: دوزي :مطبعة ليدن، 1932: 3/ 70.
49 مع شعراء الأندلس والمتنبي: 105.
50 ديوان أبي اسحاق الألبيري الأندلسي: 84.
51 استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية : 370.
52 نظرية النص الأدبي: دار هومة، ط1، الجزائر، 2007: 403.
53 التداوليات وتحليل الخطاب: 27.
54 ديوان أبي اسحاق الألبيري الأندلسي: 87.
55 أساليب الطلب عند النحويين والبلاغيين: د.قيس إسماعيل الأوسي، مطبعة أسعد ، بغداد، 1976: 325.

56 ديوان أبي اسحاق الألبيري الأندلسي: 25.
57 الخطاب التواصلي من الدلالات إلى التداوليات والسيميائيات (الضمائر الشخصية الإحالية أنموذجا): حسن كون، مجلة جيل للبحث العلمي، السنة الثانية، العدد 11، بيروت، 2015: 166.
58 ديوان أبي اسحاق الألبيري الأندلسي: 128.
59 مدخل إلى علم النص اللغوي: 269.
60 ديوان أبي اسحاق الألبيري الأندلسي: 124.